إستانبول في ظلال سلطانَيها

د. أحمد الفاضل
جامعة السلطان محمَّد الفاتح الوقفية - تركيا

هذه خواطرُ فاض بها القلم في إستانبول المحروسة، وقد هاجرنا إليها من بلادنا وأهلينا، فكانت بلادَنا ومستقرَّنا، وكان أهلوها أهلينا وإخواننا.

وأمَّا معالمها التاريخية ومساجدها الشامخة ومراقد قادتها العظام، فهي مهوى القادم إليها عندما يحطُّ رحاله، وربما غلبه التعلُّق بها فقصدها قبل أن تطمئنَّ به الدار ويعرفه الجار.

في رحاب السلطان محمَّد الفاتح رحمه الله

وهذا ما كان.. فقد جذبنا نحن وثلَّة من الأصدقاء جامع الفاتح، حيث يرقد في أطرافه القائد العثماني العظيم محمَّد خان الفاتح الذي أكرمه الله تعالى بفتح القسطنطينية، التي استعصت على الفاتحين من قبله، ومنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وقد سُمِّي المسجد باسمه تكريمًا له واشتهر باسم الفاتح، بل شرُف المكان كلُّه بهذا الاسم (حي الفاتح).

وكان أوَّل من صادفناه من العلماء الأستاذ الشيخ حمدي أرسلان، وقد رآني من بعيد ولم أكن أعرفه من قبل ولا التقيته، فقدِم نحوي هاشًّا باشًّا مُرحِّبًا وسألني عن اسمي وعملي وبلدي، وأدخلني إلى غرفة الإمام، فإذا فيها عالم جليل كبير منوَّر، وقال لي: هذا مولانا الشيخ محمَّد أمين سراج، فرحَّب بي الشيخ الجليل -رحمه

الله تعالى- ودعا لي. ثم صحبني الأستاذ حمدي إلى بعض المكتبات ومنها مكتبة انقلاب فيما أظن، وعرَّف أصحابها عليَّ، وطلب إليَّ تصوير بعض كتبي ليقرأها، وفرح بها. فجزاه الله تعالى خيرًا على هذا الإكرام وهذا الاهتمام.

وقد استوقفتنا في هذه الزيارة والسياحة بعض المعاني والخواطر حول هذا الفتح العظيم والبشائر الموطِّئة له، والفرق بين هذا الانتصار وبين انتصارات المنهزمين في كلِّ معركة. كلُّ هذه المعاني توافدت وازدحمت ليبوح بها القلم على القرطاس.

جذب أنظارنا في المسجد اللوحات الرائعة التي خُطَّ عليها بأجمل الخطوط أعذبُ الكلام وأعظمه من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأذكار والحكم. ومنها الحديث المبشِّر بفتح القسطنطينية، الذي رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه وصحَّحه ووافقه الذهبي: عن بشر الغنوي أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: (لتفتحَنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش).

هذا الحديث -مع التصحيح المتقدِّم- ضعَّفه بعضُهم، لكنَّ الذي يتبادر إلى الذهن سريعًا هذه الأسئلة: ألم تتحقَّق نبوءة الحديث بالفتح المؤكَّد باللام ونون التوكيد مع الثناء العاطر على القائد الفاتح وجيشه المقدام!

ألا يجعل هذا الحديثَ -لو كان ضعيفًا من حيث الإسناد- صحيحًا بلا ريب! ألا يرتقي هذا الحديث بالحدث الذي وقع..!

هل جعل علماء الجرح والتعديل من الطرق المصحِّحة التي يعتضد بها الحديثُ الواقعَ المصدِّق لذلك؟ ألم يقولوا: إن الحديث الضعيف ضعفًا محتملًا يرتقي إلى الحسن لغيره بطرق أخرى مقوِّية له..!

إذا كان الأمر كما ذكرت، فلم لا يكون وقوع المخبَر به في الحديث دليلًا قاطعًا بصحَّة الحديث بلا نزاع..! أليس ذلك أولى من الروايات الضعيفة المعاضدة..! هذه أسئلة ومسائل بحاجة لبحث ودرس، ولعلَّها نوقشت أو بُحِثت..

وممَّا توقَّفنا عنده مليًّا سيرة محمَّد الفاتح وقصَّة حياته، ففيها دروس وعبر

وعظات، يستفيد منها شبابنا ومن يسمَّون رؤساءنا وقادتنا...

وهذه شذرات من سيرته:

قبل أن يكون محمَّد الفاتح قائدًا وفاتحًا، كان تلميذًا في دوحة التربية والإيمان، فأستاذه ومربِّيه الرجل الصالح آق شمس الدين، الذي علَّمه القرآن الكريم، وسنَّة المصطفى وسيرته وحياة أصحابه، فنشأ نشأة صالحة على خلاف ما ينشأ عليه معظم أبناء الزعماء، وخاصَّة في زماننا. وما زال معلِّمه هذا معه حتى استأذنه بالفتح فدعا له، وكان الفتح في (٢٠-جمادى الأولى-٨٥٧) من الهجرة، فرأى الشيخ المربِّي ثمرة جهده وتعبه في هذا الشابِّ المجاهد.

لكنَّ هذا الانتصار لم يحمل القائد المظفَّر على الزهوِّ بالنفس والاستكبار، بل زاد في خضوعه وخشوعه -وهو ابن الرابعة والعشرين من عمره- فرآه الناس وهو يمرِّغ وجهه في التراب تواضعًا لله تعالى. والمؤمنون من حوله يهنِّئونه بالنصر، وهو لا يزيد على أن يقول: النصر من عند الله، النصر من عند الله..!

قارنوا بين هذا الفاتح المنتصر حقًّا، وبين من جعل من الهزائم انتصارات، وما انتصر في معركة!! ملأ الدنيا صراخًا وهياطًا بانتصار هو هزيمة من شرِّ الهزائم، فكانت انتصارات الهزائم...! ومع ذلك كلِّه يحتفون بها في كلِّ عام، ويوقفون كلَّ شيء ويبذلون من بعض الأموال التي سرقوها في سبيل ذلك ما لو اجتمع في هذه السنوات كلِّها، لأغنى فقراء انتصار الهزائم العظيم الذين يبحثون عن حياة كريمة فلا يجدونها!

وليت أنهم أقرُّوا بالهزيمة ليُعدُّوا العدَّة لمسح ذلِّها وهوانها بمعركة جديدة تعيد الكرامة المهدورة والعزَّة المفقودة، لو فعلوا لهان الخطب وانفرج الكرب، لكنَّهم ليسوا أهلًا للمكرمات والانتصارات.

انتصار فتذلُّل وانكسار... هزيمة فعتوٌّ واستكبار.. الأوَّل نشأ في حديقة القرآن.. والثاني نبت في خربات الشيطان ..

محمَّد الفاتح هذا، كان صوَّامًا قوَّامًا، وكان كثير القراءة لكتاب الله، وقبل أن يرحل لخالقه جمع أولاده وأوصاهم بأن يبقوا على العهد مجاهدين في نصرة الإسلام، وألَّا يشغلهم شيء عن مرضاة الله تعالى.

وأمَّا أصحاب انتصارات الهزائم فيوصون أولادهم من بعدهم بأن يتشبَّثوا بالحكم والسلطان وأن يقهروا الناس بالحديد والنار، وأن يفنوا منهم ثلاثة أرباعهم ليبقى الملك في أيديهم، وأن يخربوا البلاد ويهجِّروا العباد...!!

محمَّد الفاتح هذا، لمَّا توفِّي سنة (٨٨٦ من الهجرة) -وكان يخطِّط لفتح روما!- دعا بابا الفاتيكان في روما النصارى إلى الصلاة شكرًا لله ابتهاجًا بوفاته وارتياح الغرب من شرِّه..!

أمَّا صُنَّاع انتصارات الهزائم فإنَّ اليهود والغرب والشرق، حزنوا على هلاكهم وسيحزنون على هلاك أبنائهم وورَّاثهم من بعدهم، ولعلَّهم يقيمون المآتم في نفوسهم على الأصدقاء الأوفياء...!!

محمَّد الفاتح هذا حزن لفقده كلُّ شيء إلَّا أعداءه. وأمَّا المنتصرون في كلِّ هزيمة ففرح بهلاكهم كلُّ شيء إلا أحبابهم.

محمَّد الفاتح ازدانت بمرقده الأرض والبلاد كلُّها فكان مقصد الزوَّار ومحلَّ الرحمات. وأمَّا المنهزمون في كلِّ انتصار فأنَّت حفرهم من خبثهم ونتنهم، فكانوا مرمى السخط واللعنات. فأيُّ الفريقين أحقُّ بالذكر في الآفاق، وأن تبكي عليه العيون والآماق...!!

حوار.. بين يدي سيِّدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه

ثم انطلقنا مسرعين نحو مقام سيِّدنا أبي أيوب، ومضيف سيِّد المرسلين، إذ لا بدَّ لزائر إستانبول من أن يعرِّج على صاحبها وسيِّدها وأميرها وسلطانها كما يسمِّيه الأتراك.

وإني لأقول: إن الذي يزور إستانبول ولا يقف بمطاياه عند أبي أيوب مسلِّمًا

مترضِّيًا، له من العتاب ما لأولئك الذين قال لهم الشاعر:

تمرُّون الديار ولم تعوجوا .. كلامكمُ عليَّ إذن حرامُ!

ووقفنا أمامه لنسلِّم عليه، وتنحَّيت عن صحبي قليلًا، فاتَّكأت على سارية من سواري المسجد، وبينا أنا في هذه الحال، جرى لقاء وحوار نفسيٌّ بيني وبينه، وهو من إبداع الخيال، لكنَّه في معانيه إلى الحقيقة أقرب. رأيتني أمام سيِّدي أبي أيوب رضي الله عنه، فإذا برجل جمع بين جلال الهيبة وجمال الطلعة، فلمَّا رآني تبسَّم في وجهي، فاستحييت منه لعظيم قدره ومعرفتي بأنَّه صاحب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، لكنِّي حرَّكت لساني بالسلام عليه بصوت خفيض لا يكاد يُسمَع، فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. فردَّ التحيَّة بأحسن منها وزاد في ابتسامته وقال: أهلًا بأهل الشام، أهلًا بحفدة أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم! لقد جاءتنا أخباركم وما أصابكم من البلاء..! فعجبت من قوله ومعرفته، لكنَّني صمتُّ فعرف عجبي واستغرابي، فقال: لا تعجب من معرفتنا لما يصيب المسلمين من النوائب والمصائب، بل لك أن تعجب إن لم يصل إلينا معرفة ذلك، فما الأحياء بأخبرَ من الأموات..!

ثم قال ألم تقرأ قوله تعالى في الشهداء: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فقلت: بلى سيِّدي قرأتها.. أنت أخبر منَّا بلا ريب.. ثمَّ قال: لا ينقطع دعاؤنا للشام الجريحة التي دعا لها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بالبركة وأحبَّها ورغَّب في سكناها.. ثم إنِّي أعرف الشام كما أعرف مدينتي المنوَّرة! فقلت: هل زرتها من قبل؟ قال: نعم وشربت من مائها وأكلت من ثمارها، وصلَّيت في مسجدها، ولولا خروجي للجهاد في سبيل الله لطاب لي المُقام فيها، فكلُّ شيء فيها مبارك طيِّب جميل..

فقلت: وأين قصدتم بعدها؟ قال: حيث تقف أنت الآن.. هذا كان مقصدنا.. ثم

قصَّ عليَّ قصَّة خروجه من طيبة مجاهدًا في سبيل الله.. فقال: دعا داعي الجهاد أن تهيَّؤوا أيُّها الناس واستعِدُّوا، فإنَّ جيش المسلمين سيتحرَّك إلى القسطنطينيَّة لفتحها، ليحظى ببشارة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في ذلك، فيصيبه الثناء والمديح والدعاء من المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم. قال أبو أيوب وكنت -أي بني- قد بلغت سنًّا متقدِّمة وانتابتني بعض الأمراض، فعزمت على الخروج فقال أولادي رحمةً بي وشفقة عليَّ: نحن نكفيك الخروج، ولك مثل أجرنا. فقلت لهم: ليس لكم ذلك، دعوني لعلَّ الله يكرمني بالشهادة بشيبتي هذه وضعفي. وقد قال سبحانه: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] فدعاكم بقوله (خفافًا) ودعاني بقوله (ثقالًا). فلا بدَّ من خروجي فتركوني وشأني. وقد مررت في سيري على الشام، وها أنا ذا اليوم هنا، وقد كنت من قبل وحدي في هذه البقعة، لكنني اليوم بين أحبابي وأصحابي.

ثم سكت سيُّدنا أبو أيوب. فقلت: نعم سيِّدي ولكن لمَ خلَّفك أصحابك هنا؟ فلم يجب! ثم أعدت السؤال، فقال: لن أجيبك! قلت: لمه؟ فقال: أخشى الرياء وأن يحبط الله تعالى جهادي إن تحدَّثت..! فقلت في نفسي: الله أكبر! ما هذا الصدق والإخلاص، يخاف الرياء وهو في عالم البرزخ، فكيف كان شأنه وحاله في حياته! ثم عقدت مقارنة خاطفة بينه وبين المنهزمين الذين جعلوا الهزائم انتصارات، وملؤوا الدنيا حديثًا عنها وفخرًا بها..

ثم قلت: لكنَّك الآن في عالمك البرزخي، ولا حرج في الحديث عن عملك وجهادك حتَّى يتأسَّى الناس بك، فلك في هذا أجر مضاعف. فقال معرضًا: لن أحدِّثك أبدًا. فلمَّا رأيت تمسُّكه برأيه، خفت إزعاجه فقلت: كما تحبُّ سيِّدي، لكن هل تأذن لي بأن أحدِّث بما قرأت عنك وعن جهادك؟ فسكت هنيهة فخشيت أن يأبى وأن يقطع الحديث الذي بيننا وأنا متمتِّع به، لذلك أطيل في السؤال والجواب وأطنب. فقال برأسه: هكذا. أنْ حدِّثْ ففرحت برضاه أيَّما فرح. فقلت: أأختصر أم أُسهب؟ وأنا أرجو في نفسي الإسهاب، فقال: ما شئت.. ما شئت. ثم نظر في شيء يشبه الساعة القديمة وقال: هناك وقت طويل..!

فقلت له: أنت خالد بن زيد الأنصاري، نزل رسول الله في بيتك ضيفًا، فقطع

حديثي وقال: قل صلَّى الله عليه وسلَّم فقلتها وتابعت: وكنتَ بنزوله عندك أكرمَ الناس وأعزَّهم، فليس أحد أكرم ضيفًا منك. وقد أبيتَ أن يكون رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في منزول أنت فوقه، فرجوته أن يكون في الأعلى. فقال: نعم بأبي وأمِّي هو! كيف أكون فوقه! لم أنم تلك الليلة بل بقيت واقفًا على أطراف الغرفة حتى انبلج الصبح فهبطت إليه، ورجوته أن يكون في الأعلى حتَّى رضي، فكان ذلك أحبَّ إلي من الدنيا وما فيها..!

ثم نظر في تلك التي تشبه الساعة، فخشيت أن يأمرني بالانصراف ثم قال: تفضَّل هات.. لكن عجِّل!

قلت: أحدِّثك عمَّا أبَيت الحديث عنه؟ قال: نعم.

قلت: ألحَّت عليك علَّتك ومرضك في أثناء حصار بلد الروم القسطنطينية، فأمرت القادة والجند إن قبضك الله تعالى إليه أن يقرِّبوك من أدنى أسوارها ليدفنوك تحته! قال برأسه أي نعم.. فقلت: لماذا؟ فقال: ألم تقرأ؟ قلت: بلى ولكن أحبُّ أن أسمعها منك. فقال: قلت: ادفنوني هناك حتى أبعث موحِّدًا بين المشركين..!

أردت أن يصل صدى لا إله إلا الله محمَّد رسول الله إلى أقرب حدٍّ من حدود الروم. ولا بدَّ أن يأتي يوم تزلزل هذه الكلمة هذه الحصون المنيعة التي أبت علينا. وقد جاء ذلك اليوم على يدي ولدي محمَّد الفاتح الذي حقَّق أمنيتي هذه!

وتركته يتكلَّم وأنا فرِحٌ بذلك. ثم صمتُّ وكأنَّه أدرك أنِّي أستدرجه ليتكلَّم!! فأردت أن يطول الحوار فقلت له: سيِّدي لقد صحَّحتَ للناس وقت الحصار فهمًا مغلوطًا لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] فهلَّا أحسنت إليَّ ببيان المعنى الصحيح للآية حتى أحدِّث الناس به؟ قال: سؤالك عنه يدلُّ على أنَّك تعرفه! فقلت: نعم سيِّدي، ولكن أحبُّ أن أسمعه منك مباشرةً بلا إسناد. وقلت له: ألم ترحل إلى مصر لتسمع من عقبة بن عامر حديثًا..! قال: بلى. قلت: فأكرمني بذلك، فالمسألة ليس فيها خوف الرياء، إنَّما الحديث عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم

وهو يدخل تحت قوله (بلِّغوا عنِّي ولو آية) و(نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فأدَّاها كما سمعها.) قال: نعم، اسمع منِّي أي بني: كنَّا على أسوار القسطنطينية، فحمل رجلٌ من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج علينا فصاح الناس إليه فقالوا: سبحان الله! ألقى بيده إلى التهلكة متأوِّلين هذه الآية، فقمت فقلت لهم: أيُّها الناس إنَّكم لتتأولون هذه الآية على هذا التأويل، وإنَّما أنزلت فينا معشرَ الأنصار، إنَّا لما أعزَّ الله دينه وكثر ناصروه، قلنا فيما بيننا سرًا من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: إن أموالنا قد ضاعت فلو أقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى يردُّ علينا ما هممنا به هذه الآية، فكانت التهلكة في الإقامة التي أردنا أن نقيم في أموالنا نصلحها فأمرنا بالغزو والجهاد في سبيل الله تعالى.

قلت له: سيِّدي إلى الآن بعض الناس -وربَّما كانوا في زي العلماء- يفهمون هذه الآية على غير وجهها الصحيح، فيطفئون الجذوة المتَّقدة في نفوس الشباب الذين يطلبون الشهادة في سبيل الله؛ قال: أمَّا الجاهل من الناس فعلِّمه، وأمَّا أولئك فهم يعلمون، لكنَّهم يحرِّفون معاني كتاب الله عز وجل فهم أشبه باليهود الذين عرفناهم في المدينة المنورة ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]

قلت: جزاكم الله خيرًا على هذا البيان. هل تأذنون لي بسؤال أيضًا؟ قال: نعم، قلت: أهل الشام اليوم في كرب وضَنْك. فمتى الخلاص منه يا سيِّدي؟ قال: لا تحزن ولا تحزنوا. السماء والأرض وما بينهما يدعون.. فقلت: متى متى؟ قال: أو تراني أعلم الغيب أو تراني أعلم الغيب! وبدأت صورته تضعف أمامي وصوته يبعد ثم قال: ما بقي من عمر الدنيا أقل بكثير ممَّا مضى. وأخذ يردِّدها وما زالت الصورة تغيب والصوت يخبو، حتى كان آخر كلامه: ما بقي من عمر الدنيا أقل.. مع السلامة مع السلامة!

وانتبهت بغيابه عنِّي من شبه النوم الذي استولى عليَّ، وأنا مستبشِر بفتح من الله ونصر قريب، وما ذلك على الله بعزيز.